لنعمل سوياً حتى نوصل اليمن إلى 21 فبراير 2014م.

عبدربه منصور هادي - رئيس الجمهورية

14 أكتوبر
14 OCTOBER
Email: 14october@14october.com
www.14october.com

إضاءة في صفحة من صفحات تاريخ الثورة اليمنية المجـ

الثورة في مذكرات رئيس الوزراء الأسبـ

القاضي الإرياني وعلى يمينه العيني وعلى يساره محمد علي عثمان وعبدالله الأحمر

محمد زكريا

في قرية الحمامي القريبة من صنعاء الضاربة جذورها في أعماق فجر التاريخ صافح مولود في فجر الثلاثينيات الحياة، وعندما كان في سن السابعة وهو عمر يكون فيه في أشد الحاجة إلى حنان الأم ودفئها اختطفها الموت وأحس إحساسا جارفا أنه يعيش في غربة موحشة. ولم يمض وقت طويل حتى رحل والده وأخوه الأكبر عن الدنيا. فغرق الطفل الصغير في عالم الأحزان.

و رأى هذا الصغير المجاعة وهي تنشب أظافرها القاسية في أهل قريته والموت يطاردهم في كل مكان، ويتخطفهم أفرادا وجماعات، وقد خيم الأسى، والشقاء على البلاد والعباد. وعمل هذا الصغير في رعي الأغنام مقابل حبوب متعفنة من القمح. وعصفت به الأنواء، وتقلبت به الأحوال حتى ألقت به في مكتب الأيتام المدرسة الابتدائية الوحيدة في عاصمة المملكة المتوكلية اليمنية صنعاء.

إنها قصة الأستاذ الدكتور محسن العيني رئيس وزراء اليمن الأسبق، وأول وزير خارجية في حكومة الثورة السبتمبرية.

في الرمال المتحركة

ومن الصور الحزينة و الكئيبة التي شاهدها محسن العيني والتي حفرت في ذاكرته هي صورة رائد اليمنيين الحركة الوطنية و شاعر اليمن الشهيد محمد محمود الزبيري، وزميله محمد أبو طالب الخطيب المفوه في جامع صنعاء الكبير مقيدا بالسلاسل والأغلال يقودهما العكفة (الحرس الخاص للإمام) إلى سجون الإمام المظلمة المرعبة بسبب نقدهما للأوضاع الفاسدة والقهر والظلم التي خيمت على حياة اليمن في عهد الإمام يحيى المستبد الذي عزل اليمن عن محيطها العربي والإسلامي وكمم الأفواه ونشر الرعب والخوف في نفوس اليمنيين. وكان من البديهي أن تؤثر تلك الحياة الصعبة والشاقة على تكوين شخصية العيني تأثيرا واضحا فتكسبه الصلابة وقوة الاحتمال ورباطة الجأش، والجرأة، وتكره في نفسه الظلم والظالمين.

وعندما شب عن الطوق وصار شابا يافعا حزم أمره ووقف بجانب الحركة الوطنية المناهضة للإمام وأركان نظامه الفاسد. وعندما بزغت أنوار فجر الثورة السبتمبرية المجيدة، وقف معها بكل جوارحه ومشاعره وبذل قصار جهده هو ورفاق دربه لترتقي اليمن سلم الرقي والازدهار، وأن يرفرف عليها لواء الحرية والعزة والكرامة، وأن تمضي في عملية البناء والنماء .

ولقد أجمع الكثير ممن عرفوه وأحبوه بان مفتاح شخصيته هو حبه العميق لليمن والذي كان أول وزير للخارجية في حكومة الجمهورية العربية اليمنية الفتية في عهد المشير عبد الله السلال ، وتولى بعد ذلك رئاسة مجلس الوزراء أكثر من مرة في ظروف سياسية غاية في التعقيد، وكان أيضا من صناع القرار السياسي في اليمن أو من أصحاب القرار أو بالأحرى كان يمسك بخيوط اللعبة السياسية في كثير من الأحيان دون مبالغة.

وفي كتابه القيم ((خمسون عاما في الرمال المتحركة)) يروي لنا في عن الأوضاع والظروف السياسية التي كانت سائدة في عهد النظام الملكي وخصوصا في عهد الإمام أحمد الذي تولى الإمامة بعد أبيه الإمام يحيى الذي لقي مصرعه على يد أبطال ثورة 1948م الدستورية، وكذلك يروي قصته مع الثورة السبتمبرية 1962م ويحكي حكاية صراعه الحاد الذي نشب في أروقة الأمم المتحدة مع النظام الملكي البائد. وهذا الذي عرضناه من كتابه المهم والخطير قليل من كثير وغيض من فيض. ولسنا نبالغ إذا قلنا أن هذا الكتاب بمثابة وثيقة سياسية نادرة يجب ويتوجب أن يتعرف عليها الجيل الحاضر وجيل المستقبل ليتعرفوا على دور اليمنيين الأحرار في الحركة الوطنية اليمنية الذين ضحوا بأرواحهم من أجل شروق شمس الحرية على ربوع اليمن ، وكيف عاش، وعايش رجالات الثورة السبتمبرية الأوائل أوقاتا صعبة وخطيرة، ولقي الكثير حتفهم من أجل أن تمخر سفينة الثورة عباب أمواج البحار المتلاطمة الشاهقة كالجبال الراسيات والعواصف العاتية إلى شاطئ الأمن الأمان والسلام والازدهار والتقدم، وكان ذلك بالفعل.

صنعاء ترقد عند الغروب

يصف الدكتور محسن العيني صنعاء القديمة في عهد الإمام يحيى، بأنها كانت مدينة تغلق أبوابها، وترقد عند غروب الشمس، وتستيقظ عند أول خيوط شعاع الفجر. كان يغشاها الظلام الحالك، مدينة تعيش في عالم آخر غير العالم الذي يمور بالحركة، والنشاط، والحياة. وربما هنا كان مناسبا أن نقتبس فقرة من كلام العيني :" كانت صنعاء صغيرة محاطة بالأسوار، تقفل أبوابها السبعة عند الغروب، ولا تفتح إلا بعد الفجر عند الشروق. وتعيش في ظلام دامس، إلا دار الشكر، ودار السعادة، حيث يعيش الإمام وأسرته ... لم يكن فيها فنادق أو مطاعم، بل مجرد ((سماسر)) متواضعة ينزل فيها المسافرون مع دوابهم، ومخابز بسيطة ". ويستطرد، قائلا : " ... حتى السيارات كانت محدودة معدودة ربما لا تتجاوز أصابع اليدين، حتى ليقال إن الإمام يحيى عندما قتل في سيارته في ضواحي صنعاء، لم يجدوا ما ينقلون عليه الجثمان إلا سيارة كبير اليهود حبشوش ... ".

بصيص من النور

و يروي محسن العيني في صفحات حياته أنه رأى بصيصا من النور والأمل يخترقان حاجز العزلة الخانق الذي ضربه الإمام يحيى ونظامه المستبد على اليمن واليمنيين، عندما تلقت أسماعه كلمات أيقظت روحه الوثابة، وكانت بمثابة الأرض المتعطشة لقطرات المطر وهي الحرية، التعليم، الإصلاح، والعدل، وشاهد رواد الحركة الوطنية الذين كان لهم دور مؤثر وفعال في انفجار ثورة 48م في وجه السلطة الإمامية أمثال أحمد المروني، أحمد الحورش، أحمد البراق، وجمال جميل الضابط العراقي معلم الجيش اليمني. وقبله وصل إلى صنعاء وتعز المدرسون المصريون، واللبنانيون الذين كان لهم الفضل الجليل والكبير في نشر نور العلم والمعرفة بين طلاب المدرسة المتوسطة والثانوية، وقد كان حضورهم إلى اليمن بإلحاح من رجالات العرب الواعين والمثقفين في جامعة الدول العربية الذين ضغطوا على سيف الإسلام عبد الله بن الإمام يحيى ــ الذي كان حينئذ وزيرا للتعليم ــ بضرورة نشر ضياء العلم والمعرفة في اليمن، وكانت تتسلل إلى صنعاء صحيفة المعارضة الصادرة في عدن والتي كان لها دور كبير في تعرية النظام الإمامي أمام اليمنيين. وفي هذا الصدد، يقول العيني : "ووصلت بالفعل مجموعة من المدرسين المصريين واللبنانيين للتعليم في المدرسة المتوسطة والثانوية في صنعاء ومثلهم في تعز. وانتعشت الحركة السياسية والفكرية في صنعاء، ووصل الأستاذ الفضيل الورتلاني المناضل الجزائري المعروف، والدكتور أحمد فخري عالم الآثار المصري الشهير، ووصلت سرا إلى صنعاء " صوت اليمن " التي كان يصدرها اليمنيون الأحرار في عدن ". ويضيف، قائلا : " وسمعنا من أساتذتنا أحمد المروني، وأحمد حسن الحورش، وأحمد البراق، ومحمد الحلبي، ومن صديقيهم السيد أحمد الشامي والرئيس جمال جميل الضابط العراقي معلم الجيش اليمني. سمعنا كلمات الظلم، والطغيان، والاستبداد، والحرية، والتعليم، والإصلاح، والعدل ". وكان من البديهي أن توقد تلك العبارات الرائعة التي تسمو بإنسانية الإنسان في وجدان محسن العيني الشاب الممتلئ حيوية ونشاطا كبيرين جذوة الحرية التي باتت جزءا لا يتجزأ من نسيج حياته ومشواره السياسي الطويل المفروش بالشوك الذي امتد قرابة خمسين عاما والتي ناضل من أجلها .

في عدن

وفي طريقه إلى الدراسة في لبنان ــ في أواخر الأربعينيات ــ يذكر العيني، كيف هو وزملاؤه انبهروا بمدينة عدن التي كانت تموج بالحركة ، والنشاط، والحياة، وكانت الأضواء تحيط بها من كل مكان والسيارات لا تنقطع عن الحركة، وكيف شاهد لأول مرة في حياته هو ورفاقه السينما، وكانت تعرض فيلم عنتر وعبلة. وكيف قضوا ليلتهم في مدرسة جبل الحديد التي كانت لأبناء سلاطين المحميات. وفي عدن التقوا أيضا بالمناضل الشهيد الشاعر محمد محمود الزبيري، والأستاذ نعمان لأول مرة وجها لوجه اللذين كانا ينقدان النظام الإمامي ، ومن عدن توجهوا بالسفينة إلى السويس بمصر. وفي هذا الصدد، يقول العيني : " وفي عدن نزلنا بمدرسة جبل جديد التي كانت خاصة بأبناء أمراء المحميات وحكامها، وكانت خالية من الطلاب بمناسبة العطلة الصيفية. وقد فوجئنا فور وصولنا بوجود الأستاذين أحمد محمد نعمان، ومحمد محمود الزبيري، زعيمي تنظيم اليمنيين الأحرار. وقد سبق أن سمعنا عنهما ، وقرأنا ما يكتباه شعرا ونثرا، تنديدا بالإمام وحكمه وظلمه ودعوة إلى الإصلاح، واستنهاض الشعب وإيقاظه ". ويمضي في حديثه، قائلا : " وقد ذهبنا معهما إلى دار السينما للمرة الأولى في حياتنا، وشاهدنا فيلم ((عنتر وعبلة). ولم ننم بعد ذلك أياما إعجابا وذهولا. وشاهدنا مدينة عدن، وهي تسبح في أنوار الكهرباء طوال الليل، والسيارات تسرح وتمرح في شوارعها المعبدة، بعد الظلام الدامس في صنعاء وتعز والحديدة ومدننا وقرانا في الشمال " .

في القاهرة

ولم يمض وقت على بقاء العيني في صيدا بلبنان حتى انتقل هو وزملاؤه للدراسة في القاهرة بسبب غضب الإمام أحمد من الحكومة اللبنانية التي منحت حق اللجوء السياسي لأحد الذين حرضوا اليمنيين الأحرار على الثورة الدستورية 48م والذي كان له اليد الطولي في مصرع والده الإمام يحيى وهو الفضيل الورتلاني الجزائري .

وفي القاهرة تفتحت وترعرعت واتسعت مداركه السياسية بسبب التيارات السياسية المتنوعة من الأحزاب وعلى رأسهم حزب الوفد الذي كان يمتلك قاعدة شعبية عريضة في مصر والذي كان دائما في صراع مع الملك والإنجليز من ناحية والصحف المصرية التي كانت تنتقد فيها نظام أركان الملك فاروق بشجاعة نادرة وجرأة كبيرة من ناحية أخرى. ويذكر العيني كيف كانت جامعة القاهرة في الأيام الأولى من فجر ثورة يوليو عام 1952م تمور بالحياة السياسي، وكيف كانت فيها مختلف المشارب السياسية، وفي هذه السنة نفسها التحق العيني بكلية الحقوق في جامعة القاهرة ويروي عن تلك الأيام قائلا : " كانت جامعة القاهرة تعج بالنشاط السياسي المصري للشبيبة الوفدية وشباب الإخوان المسلمين و ((مصر الفتاة)). وفي ساحة الجامعة تكثر التظاهرات وبخاصة في الأشهر الأولى للثورة وقبل إعلان الجمهورية". ولقد تأثر العيني بعدد من كبار أساتذة الجامعة أمثال محمد أبو زهرة، عبدالمنعم بدر، حامد سلطان، عبد الله العريان، ورفعت المحجوب وغيرهم. والحقيقة أن استعراضنا السريع للحياة السياسية الذي مر بها الأستاذ العيني هو لأنها كانت لها بصمات واضحة في تكوين فكره السياسي أو بالأحرى نهل من ينابيع من تلك الحياة السياسية والتي كانت له معينا في مشواره السياسي الطويل.

الزبيري وعودة الروح

بعد أن فشلت الثورة الدستورية في سنة 1948م، تمكن الإمام أحمد من القبض على الكثير والكثير جدا من رواد الحركة الوطنية فمنهم من قضى عليهم، ومنهم من زج بهم في غياهب السجون المظلمة ، ومنهم من تشرد كالشهيد الشاعر رائد الحركة الوطنية محمد محمود الزبيري الذي توجه إلى الباكستان وعاش فيها حياة غاية في الصعوبة. وعندما بزغ فجر الثورة المصرية في يوليو 1952م، والتي كان من أهدافها ومبادئها مساعدة حركات التحرر في الوطن العربي وفي ظل هذا المناخ السياسي الصحي وجد الزبيري أن الوقت مناسب لإعلان النضال ضد النظام الإمامي المستبد في اليمن من مصر عبد الناصر، وتعرية نظامه الذي يقوم على القمع والقسوة، وتكميم الأفواه. وكان من أثر ظهور الزبيري في القاهرة أن أحدث صحوة سياسية بين صفوف الطلاب اليمنيين المتعطشين للتغيير والرافضين لأساليب الحكم الإمامي الذي أدخل اليمن في نفق العزلة المظلم. وفي هذا الصدد، يقول العيني : " وصول الأستاذ الزبيري إلى القاهرة كانت نقطة البداية من جديد لنضال اليمنيين الأحرار بعد ركود طويل إثر فشل ثورة 1948م. فقد بدأ اتصالاته مع رجال الثورة المصرية والشخصيات العربية في القاهرة، وتجمعات اليمنيين في عدن والسودان وأثيوبيا وبريطانيا وفرنسا. وبدأت إذاعة ((صوت العرب)) وكان لليمن فيها نصيب الأسد من ساعاتها الأولى ". وبمعنى أخر لقد اشتعلت مرة أخرى جذوة الثورة التي كانت تحت الرماد من فترة طويلة بعد فشل الثورة الدستورية أو بالأحرى كان وجود الزبيري بين الطلاب واليمنيين الأحرار بمثابة عودة الروح للنضال الوطني من جديد .

انقلاب 1955م

ويكشف العيني لأول مرة عن مهمته السرية والخطيرة وهي أن يلتقي بالمقدم أحمد الثلايا، عندما كانت تعز تعيش أحداث الانقلاب على الإمام أحمد سنة 1955م. وقد حمل الزبيري العيني في مصر رسالة إلى الثلايا. وعندما وصل العيني وزميله جغمان إلى عدن، وجد أن حركة الثلايا، قد تم القضاء عليها. وعندما وجدا أن الأمور انقلبت رأسا على عقب. قررا أن يتحدثا مع الأستاذ أحمد نعمان، والقاضي عبد الرحمن الإرياني حول السبب الحقيقي وراء مجيئهما إلى تعز. فيقول : " في دار الضيافة التقيناهما وأخبرناهما عن مهمتنا الحقيقية، وأننا كان المفروض أن نصل إلى تعز، وهي تعيش الانقلاب، ونقابل المقدم الثلايا الذي نحمل إليه رسالة، لكننا واجهنا التغيرات. ودعينا للوصول فلبينا " .

السفر إلى باريس

يذكر العيني أن الإمام أحمد، قد أمره أن يدرس في باريس بدلا من القاهرة بحجة تعلم اللغة الفرنسية، ويشرح السبب الحقيقي وراء ذلك هو أن الإمام كانت غايته إبعاده عن القاهرة التي كانت تمور بالحركة الوطنية الموجهة ضد نظام حكمه. ولقد حاول العيني مع الإمام أن يشرح له بأن الدراسة في القاهرة أسهل من الدراسة في باريس ولكنه أصر على ذهابه. " وطلب من القنصل ترتيب كل ما يلزم، واستدعى الشيخ أحمد حسين الوجيه لتسديد مصروفات السفر والدراسة، ورفض أي مراجعة في هذا الموضوع". وربما هنا كان مناسبا أن نقتبس فقرة من كلامه، فيقول : " وكما أبعدنا من صنعاء عام 1954م إلى القاهرة مع ابنه البدر، أبعدنا هذه المرة من القاهرة إلى باريس عام 1955 تفاديا لأي نشاط كان يتصوره " .

في حي الحرية

ويذكر العيني كيف كان تسيم الحرية يرفرف على الحي اللاتيني في باريس ــ في الوقت الذي كانت اليمن تعيش في دياجير الجهل والظلام في عهد الإمام ــ وقد كان مسرحا للتيارات السياسية و الفكرية المتنوعة التي كانت تطرح آراءها بكل حرية وجرأة دون خوف من السلطات الفرنسية، وفي هذا الحي التقى بعدد كبير من العرب من شمال أفريقيا، والشام، ومصر. وفي أثناء ذلك قطعت عليه وعلى زميليه جغمان، والرعد المنحة الدراسية بسبب وصول معلومات إلى الإمام أحمد بأنهم مازالوا على اتصال بالحركة الوطنية في القاهرة. ويصف العيني المحنة التي عاشوها في باريس بسبب قطع المنحة الدراسية عنهم ــ على نحو ما سبق وذكرنا، فيقول : " ولم نعد نعطي أي أهمية للدراسة في باريس، فوجهنا رسالة إلى عدد من كبار الطلاب في القاهرة، تركت أثرها الإيجابي في القاهرة والسلبي في باريس، فقد قطعت عنا المنحة الدراسية، وكان علينا أن نواجه البؤس والمتاعب في باريس ... ورغم الظروف القاسية التي تعرضنا لها فقد آثرنا الاستمرار والصمود وعدم العودة حتى لا تتأثر معنويات زملائنا الطلاب في القاهرة. وقد أمضينا عامي 1955 و 1956 في باريس والتحقنا في الصيف بـ ((الأليانس فرانسيز)) وتعلم اللغة بالسوربون وتسجلنا في كلية الحقوق ". ويعقب العيني الذي رأى الحرية الحرة تطل برأسها في كل مكان من الحي اللاتيني، فيقول : " الحي اللاتيني بمفاهيمه ومكتباته،

←

العيد الخمسون لثورة سبتمبر الخالدة

خمسون عاماً من البناء الوطني الفكري والمادي